

كيف تلهو نيويورك . . .

عود إلى لغة الأرقام .

لا عجب في أن أتخذ هذه اللغة بين الفينة والفينة ؛ فاني ما برحت تزيل أمريكا ، أتسهم هواءها ، وأحيا في مغانيها . وليس لأمریکا معنى إلا أنها أرقام وأرقام . . .

أرقام متكاثرة متعالية . . .

نواطح سحب أخرى ، قوامها الأعداد لا الأحجار !

ليس ذلك بمقصود على سيادين العمل المختلفة ، ولكنه يتعداه إلى الملاهى وما إليها من ضروب المتع .

تضم مدينة نيويورك سبعةة مبنى بين مسرح للتمثيل ، ودار للسینا ، إلى جانبها ثلاثمائة وألف من أندية الليل ، تلك التى يسمونها بالفرنسية « الكباريهات » ، ولعلنا لا نخطئ إذا سميناها : المساهر .

هذه المواطن ، على اختلاف أنواعها ، بمثابة متنفس لسكان مدينة التراحم والضجيج . . . هؤلاء الآدميين الذين لو انتقلوا من عقال مدينتهم لكانوا أحرى أن يعمرؤا أقطاراً شواسع .

تعمل تلك المسارح والمساهر وما إليها فى هذه المدينة عمل النوافذ للحجر والرئات للأجساد .

إنها مثوى راحة ، ومثابة استجمام ، لذلك الآدمى الذى ينهمك فى عمله ، رغبة فى الدولار ، كما كان ينهمك عمال السخرة فى الزمن القديم ، رهبة من العقاب .

ويديه أن تكون تلك التنفسات سوفورة الحظ من أسباب الدعة والتسلية وإمتاع النفوس ، وإلا انعكست الآیة ، فازداد قصاها رهقاً على رهق ، وشقيت أعصابهم بعذاب جديد .

وطوعاً لذلك الغرض المنشود حرصت تلك الدور على أن تقدم لروادها من نتاج الفن ثمرات دانية النال . أخاذة المظهر ، وشراباً قريب المنهل ، سائغ المذاق ، وأن يكون فيها من عناصر التفكهة والمرح ما يملأ النفوس من اغتباط ، وينسيها ما يثقلها من أعباء المعاش .

ومن ثم كان الروح الغالب فيما يعرض بتلك الدور هو روح التسلية 'المحضة' . على أن التسلية ألوان ، وإن منها لما يصدف عنه الرجل المهذب الذى علت ثقافته وصفا ذوقه ، فلم تعد نفسه تبتهج بالرخيص من التسليلات . ولذلك تعددت ألوان المسارح والمراقص والمساهر ، لكن توافى مطالب الأذواق والأهواء . وعلى الرغم من أن روح التسلية تسرى فى هذا النتاج الفنى وتتدافى به أحياناً إلى درجات التفاهة أو الانحراف ، فان ذلك النتاج بمجموعه فى المستوى الذى يلائم بلداً متحضراً ، أهله على حظ ملحوظ من الثقافة وسلامة الذوق . خرجت يوماً لأشهد حفلة موسيقية فى « ستاديوم كونسير » أستمع فيها إلى عازف على البيان أحسبه بولونى الجنس ، اسمه روبنشتاين وبينما كنا نجتاز الطريق إلى الثابة المنشودة ، اعترضتنا زحمة هائلة اضطرب لها نظام المرور . وتناهى إلى أسماعنا أن وقائع دموية تجري ، وأن رجال الشرطة يعالجونها ضبطاً للأن

وبعد حين استبانن لنا جليلة الأمر ، فاذا بنا نعلم أن الزحمة لم تكن إلا إقبالاً من الجمهور على شراء تذاكر لمشاهدة الملاكم لويس ينازل خصماً كبير الخطر .

وكان الطريق على رحابته وامتداده يموج بتلك الجموع التى تتناقل الحديث والنقاش ، بين مشايخ للملاكم العالمى ، وبين مناصر لخصمه الذى تصدى له . فأذكرنى ما أرى مجالس « شاعر الرابة » فى العهود القريية ، حين يتحلق الناس حوله ، يستمعون إلى ما يقصه من أساطير الزناق خليفة ودياب بن غانم وما كان بينهما من حرب ونضال ، فاذا المستمعون فريقان : مشايخ لهذا ، ومناصر لذلك . وربما أدى الخلاف إلى شجار بين الفريقين حامى الوطيس . ما أشبه الآدمى بالآدمى ، مهما تختلف بهما الثقافة والتحضر !

ليس من فارق بين المعركة القائمة حول مجال الملاكمة ، وتلك المعركة التى كانت تقوم حول « شاعر الرابة » إلا أن الجمهور الأمريكى تدور

معركته حول أبطال في عالم الحقائق ، والجمهور الشرق تدور معركته حول أبطال في ذمة الأساطير وعالم الخيال .

ولقد انتقلت عدوى التحدث والمجادلة في شأن هذه الملاكمة إلى ساحة السيارات ، فاندسج سائق سيارتنا في غمار المتحدثين والمجادلين ، حتى خشينا أن نتحدث مشاجرة نكون من وقودها دون أن نجنى ذنباً !

لقد كانت السيارات وهى تجتاز الطريق ، كأنها مراكز إذاعة متنقلة ، مراكز استقبال وإرسال في شأن هذه الملاكمة الخطيرة .

وبعد لأى بلغنا « ستاديوم كونسير » في سلام ، ولم نكد نطأ أرضه حتى ألفينا أنفسنا بين حشود من الناس يختنق بهم المكان .

إن « ستاديوم كونسير » رجة فياحة مكشوفة للهواء الطلق ، مليء نصفها بكراسى مصفوفة ، وأقيم في نصفها الآخر مدرج عظيم . . . إنها ساحة للألعاب الرياضية على طراز روماني ، يتخذونها أحياناً مثابة للفن ومسرحاً للموسيقى .

كانت هذه الآلاف المؤلفة يهوج بها المكان ويرتج ، فما إن جعلت الموسيقى تطلق أنغامها ، حتى عم السكون ، فاستحال المكان كعبة عبادة يخيم عليها الخشوع .

ولما تجلى العازف البولوني يصفاح البيان بأنامله ، راحت هذه الجموع الحاشدة بهم معه في آفاق روحية رائعة .

وانتهى العزف ، فاذا الجمهور التعبد الخاشع ينبعث مهتلاً مرحاً ، يعلن حفاوته في حمية بين التصايح والتصفيق .

يميناً إن الفنان في روحه الانسانية السامية ليلقى من حفاوة الأمريكيين وتكريمهم مالا يقل شأناً عما يلقاه بطل الحرب وزعيم السياسة !

ولقد أثار انتباهى إقبال الجمهور الأمريكى بوجه عام على نوعين مختلفين متضاربين ، يستنفد فيهما وقت فراغه : أحدهما مجالات الملاكمة والصراع ، والآخر أندية الموسيقى والغناء .

ظاهرتان قد تبدوان على تناقض : نزعة إلى الوحشية تسيرها عاطفة رقة وحنان !

ليس ثمة من تناقض .

إن الطبيعة قوامها هذان العنصران من خير وشر، من شدة ولين . وما زالت الانسانية بخير ، إذا استوتفت نصيبها من هذين العنصرين على درجة سواء . فان لم تتوافر السلامة والاتزان بينهما ، فطغى أحدهما على الآخر ، صار الأمر إلى فساد .

والدول في ذلك كالأفراد ، بتكامل هذين العنصرين فيها ، تتصف بالاعتدال . وليست فورات الشعوب في الغارات والحروب ، إلا اختلالاً في أنسجتها الحيوية ، أفقدها ما بين العنصرين من توازن ووفق . . . إنها طغيان لعنصر على الآخر . . .

وما أقرببه شهباً بثوران بعض الأنسجة في الأبدان ، ذلك الثوران الذي يحدث أوراماً سرطانية تورد صاحبها موارد الختوف !

والمرح في نيويورك على تباين أنواعه لا يختلف كبير اختلاف عن أمثاله في أسهات المدائن المتحضرة ؛ فما يعرض فيها على مسرح « متروبولتان أوبرا » تصادف مثله في أوبرا باريس و « كوفنت جاردن » في لندن . وما يعرض في مسهر « كوبا كابانا » لا يزيد على ما يعرض في مسهر « الليدو » في باريس . وقد تجدد الرواية الفنية تمثل أعواماً تبعاً على أحد مسارح نيويورك فتذكر أن ذلك يجري أيضاً على هذا النحو في مسارح لندن . . .

وإذا ذكرت المسرح الثلجي المسمى « آيس شو » في نيويورك طالعك على الفور قصر الجليد في باريس المسمى « باليه دو جلاس » .

فإن أبيت إلا أن تلمس بينها بعض الفروق ، لم تجد إلا تلك الفروق المظهرية بين بلد وبلد ، من حيث الطابع المحلي ، والذوق الشخصي .

ولكن ثمة في الفن الأمريكي ظاهرة خليقة بالذكر ، وإني لأحسب أن أمريكا قد تفردت بها ، أو لعلها سبقت غيرها إلى تجويدها .

هذه الظاهرة وليدة فكرة يسمونها « تيسير الفن للجميع » وغرضها تحبيب الجمهور الكبير في الفن الرفيع ، بعرض نماذج شائقة منه يستسيغها مستوى الذوق العام .

وقد تكفل مسرح « رديوستي هول » بتحقيق هذه الفكرة . . . وهو في الحق مفخرة البناء المسرحي ، وآية إعجاز بين دور التمثيل .

إنه ليرحب بستة آلاف ومائتين من النظارة ، على مقاعد فسيحة وثيرة ،

لا تقل فخامة ولا روعة عن المقاعد في أسهات دور الأوبرا في العالم المتحضر .
فأما الأجر الذى يؤديه المتفرج ، فهو زهيد تافه ، بالنسبة للأجور العالية
في الدور الرفيعة للتمثيل .

والبرنامج في هذا المسرح يبدأ منذ الصباح ، ولا ينتهى إلا بعد منتصف
الليل ، فهو في تكرار خلال هذه الساعات الطوال . وإنه لبرنامج طريف
نستطيع أن نعهده وافيًا بالغرض من تسليية الذهن وتغذيته . . . إنه يماثل
وجبة من الطعام خفيفة الهضم ، مستوعبة عناصر الغذاء الصالح . ولو ألقيت نظرة
على أى برنامج من برامج هذا المسرح ، لوضحت لك تلك الفكرة في غير عناء .
البرنامج عدة فصول :

عرض رواية سينائية من المشهورات . حفلة موسيقية قوامها ستون عازفًا
يؤدون قطعة عالمية متعارفة . فعناء تقوم به جوقة يرأسها مطربات ومطربون ممن
لم مكانة ملحوظة وصيت بعيد . فعرض موسيقى غنائى راقص قوامه أسراب من
الفتيات يؤدين رقصات شعبية ، وأخرى فنية في مشاهد جميلة رائعة تتميز
بالطرافة في الإضاءة والإخراج .

أو لست ترى من تضاعيف هذا البرنامج أن الهدف الأول هو تقديم نماذج
طيبة لا تنزل إلى مستوى التهريج الرخيص ، ولا تسمو إلى الفن الذى قد
يستعصى على سواد الناس ؟

قيل إن الأوبرا محاولة لجمع فروع الفن في إطار واحد : التمثيل والغناء
والموسيقى والتصوير والبيان ثره وشعره .

وإني لأرى أن « رديوسى هول » هو محاولة أخرى ، وإن تكن في حادثة
عهدها ، لجمع سناحي الفن الحديث في دائرة واحدة . وقد تنمو هذه الفكرة
على الأيام وتتطور حتى تلم شتات الفن على نحو جميل .

وعلى أية حال ، فإن هذا المسرح يطمح إلى أن يجعل الفن ديمقراطيًا ،
وأن يخلع عنه رداء الأرستقراطية التقليدية التى طال عليها الزمن .

ولكن هل يمكن حقًا أن تطوى الديمقراطية تحت جناحها روح الفن الرفيع ؟
إن هذا الفن الرفيع في معناه الأصيل أرستقراطى في كل ناحية من نواحيه ،
فهو سمو في التفكير ، وعلو في الذوق ؛ إنه أرستقراطية الذهن الذى يتفتق عن
عبقرية ونبوغ .

ولا نزاع على أن العباقرة في كل أمة وفي كل عصر نفر قليلون ، وأن ولائد قرائعهم ستظل بمعزل عن المستوى الشعبى الذى ينتظم أفهام السواد .
وإذن فبون ساشع بين أرستقراطية الحياة التى هى فى متناول التغيير والتبديل بقيامها على أسس من الماديات ، وبين أرستقراطية الفن التى هى عصبية ممتعة ، لقيامها على أسس من مواهب خفية ليس إلى اجتلابها من سبيل .
وثمة ظاهرة أخرى فى الفن هنالك ، لا يحتاج التذليل عليها إلى بيان ، تلك هى عظمة الفلم الأمريكى وتفردة بالغلبة ، وسموه إلى القمة .

وجلى أن هذا الفلم يكاد يستوعب مظاهر النشاط الفنى جميعاً ، فيه تتلاقى الجهود الفنية المختلفة الألوان ، وإليه تجند المواهب والعبقريات فى شتى مناحيها .
ولا مرية أن ملابسات دولية فى الحرب العالمية الأولى ، أتاحت لأمريكا فرصة التجويد فى هذا الفن ، وترويد الأسواق به ، على حين أن الأمم الأخرى كانت فى شغل بأثقال الكفاح ، فتخلفت فى هذا المضمار . . .
على أنه لو لم يكن الزاد الأمريكى الفنى ثمين الجواهر ، لما أعانته تلك الملابس الدولية على التغلب والظفر .

ولو ذهبنا ننقصى العوامل التى أبرزت الفلم الأمريكى ، وجمعت حوله الأهواء ، وجعلته فنا عالميا تنفسح له جوانب الأسواق ، لآلفينا العوامل يتقدمها عامل الإخراج وما يكتنفه من معدات .

إن المخرج فى الفلم الأمريكى هو روحه وقوامه ، وإن هذا المخرج قد تنظن إلى لب الحياة وزاويل من تجارب صناعته وتفهم جمهوره ما يبصره بوسائل النجاح .
فهو إذا عرض عليك إنتاجه ، حاول أن يضع تجاه نظرك قطعة حية من دنياك التى تعيش فيها ، لا تزيين ولا تزييف ، فسرعان ما تستجيب نفسك لما تشهد ، وسرعان ما تتم بينك وبينه الألفة ، وتحس بأنك تعايش من ترى من الناس ، وتراول ما يدور من المشاهد والأحداث .

لقد توارى فى الفلم الأمريكى ما كنا نشهده قبلا من مبالغة فى الأداء ، وتلفيق فى الصور ، وتزوير على ما تراه العيون ، وتستشعره النفوس فى دنيا الناس . . .

لقد أصبح فن الفلم الأمريكى هو فن الحياة !